الفصل الأول

المعـــايير

- طبيعة المعيار
- تنوع المعايير

  الأساليب الشعبية

  الأعراف

  القوانين

  معايير الجماعات المنظمة
- العلاقات بين المعايير
- لماذا نتطابق مع المعايير
- صراع المعايير

المعـايير

NORMS

تفصح العلاقات الاجتماعية عن نظام عجيب وان كان يتميز بالاستقرار · ففى كل يوم نتفاعل مع كثير من الناس ، نعرف بعضهم ولا نعرف الآخرين · كيف يحدث أن كل هذه الأنواع من العلاقات الاجتماعية تجرى بين الناس سواء من يعرفون بعضهم أو من لا يعرفون بعضا بمنتهى السهولة ، كيف يكون ذلك ممكنا ؟ يوجد الجواب على هذه الأسئلة فى المعايير التى تسود فى كل مجتمع والتى تشكل عنصرا هاما فى البناء الاجتماعى للمجتمع ، ومن ناحية أخرى تشكل موضوعا له أهمية أساسية فى علم الاجتماع ·

طبيعة المعيار The Nature of Norm

(المعايير هى قواعد rules أى أنماط Patterns للسلوك ، تحدد ما هو متوقع ومعتاد وصواب أو مناسب فى موقف معين · فهى ترشد الانسان الى ما يجب أن يعمل أو يفكر فى موقف معين ، واكثر من ذلك مايشعر به (١) · فمثلا نحن نعرف أن لعبة كرة السلة لا يمكن أن تحدث بدون قواعد ، هذه القواعد هى المعايير ، ويمكن القول أنها تشكل بناء كل لعبة . وأيضا لايمكن أن يستمتع المشاهدون بهذه اللعبة أو تلك الا اذا كانوا هم أيضا على علم بقواعد اللعبة التى يشاهدونها · وأيضا هناك قواعد لمشاهدة اللعب ، وهـذه تسمى أيضا معايير المشاهدين ، وهناك أيضا عقوبات لمن يخرج منالاعبين علىمعايير

---

1 — BIESANZ, MAVIS H. and BIESANZ, J. : «Introduction to Sociology» Prentice-Hall, Inc., Englwood Cliffs, New Jersey, 1973. P. 64.

اللعب ، وأيضا هناك عقوبات لمن يخرج من المشاهدين على معايير المشاهدة ، فاذا كان مع أحد المشاهدين تذكرة فى الدرجة الثالثة وحاول أن يجلس فى الدرجة الأولى فانه يمنع ويوجه الى الدرجة الثالثة ، واذا أصر على معارضته للمعايير فانه يطرد خارج الملعب · وما هو صادق بالنسبة للعبة الكرة ، هو بنفس الدرجة صادق فى كل المواقف الاجتماعية · وأيا كان الترتيب أو النظام الذى يتضح من سلوك الناس فى علاقاتهم بعضهم مع بعض فهو يرجع ويعزى الى وجود معايير يحاول كل مشارك فى مختلف مواقف الحياة الاجتماعية أن يتطابق معها ·

(ومن ثم فالمعيار هو قاعدة تحكم وتوجه سلوكنا فى كل المواقف الاجتماعية التى نشترك فيها ، فهو نمط سلوكى يتوقع المجتمع منا أن نتطابق معه ، هو خاصية ثقافية توجه وتقود سلوكنا فى المجتمع · انه أسلوب للفعل . انه الأسلوب الذى وضعه لنا مجتمعنا لفعل الأشياء ، ومن ناحية أخرى هو الأداة الجوهرية للضبط الاجتماعى) (١) ·

ويلاحظ أن المعايير هى أنماط مثالية ideal patterns ، موجودة ومنغرسة فى عقل الممارسين فى ثقافة ما ·كتوقعات عن سلوك الفرد والآخرين ، وفى بعض الأحيان تصاغ بوضوح فى شكل قواعد أو قوانين ، فهى كتخدم كمرشد للسلوك الواقعى الذى قد ينحرف عن المعايير قليلا أو كثيرا · فمثلا عند كتابة أى موضوع فلابد للكاتب أن يحاول جاهدا استخدام اللغة العربية الصحيحة ، وتكون اللغة صحيحة عندما نتطابق مع قواعد اللغة العربية أى معاييرها · فمثلا نحن نعتاد وضع نقطة عند نهاية الجملة ، فاذا حدث ووضعنا علامة استفهام بدلا من النقطة فان هذا سوف يسبب اضطرابا للقارىء ·

---

1 — BIERSTEDT, ROBERT : The Social Order, An Introduction to Sociology» McGraw-Hill Book Company, Inc., New York, 1963. P. 223.

(فالمعايير هى قواعد النسق التى تصف وتحدد السلوك المتوقع فى مختلف الظروف · وبصفة عامة المعيار هو تقرير واضح قد يأخذ شكل تحريم Prohibition ، وتطلب من الفرد أن يسلك بأسلوب معين فى موقف معين) (١) · فالمعايير تقرر وفى نفس الوقت تحرم ، بمعنى أن المعايير تقرر وتتطلب أفعالا معينة ، ومن ناحية أخرى تحرم أى تمنع الفرد من فعل أفعال أخرى · فمثلا نحن ملزمون بلبس الملابس فى المجتمع وممنوعون من السير فى الشوارع عرايا · نحن ملزمون بالنجاح فى الامتحانات فى برامج الكلية وممنوعون من الغش فى الامتحانات ، ونحن ملزمون بقيادة سياراتنا على الجانب الأيمن من الطريق وممنوعون من تخطى الاشارة الحمراء أو السير على اليسار · وهكذا عادة يأتى التصريح والتحريم متزاوجين ، بمعنى أننا نكون مطالبين بعمل معين وغير ممنوعين من اتيانه ، وفى نفس الوقت ممنوعين من فعل معين ومطالبون بمحوه · وعندما تكون المعايير التحريمية غير مؤيدة بالقانون ، أى أن تحريمها غير مسن أى لم يصدر به تشريع يعرف هذا النوع من المعايير باسم المحرمات Taboos · وأن يذهب بعض علماء الاجتماع الى أن المعايير التى لها قوة فوق العادة فى تحريماتها هى التى تسمى تابو Taboo ، مثل الزواج من المحارم حتى أنه أصبح صفة مميزة لكل المجتمعات) (٢) ·

وهكذا نحن نعرف المعايير وهى تحت أنظارنا دائما ، ولكن من كثرة تعودنا عليها أصبحت مألوفة لنا حتى أصبح من النادر أن نلاحظها الا فى حالة خروجنا عليها ·

والوظيفة الأساسية للمعايير لعضو المجتمع هى خفض أو اقلال المناقشات فى المواقف الاجتماعية العديدة التى يواجهها الانسان والتى يشارك فيها ·

---

1 — ALLYN, CHARLES : «Sociology, An Introduction» Prentice-Hall, Englwood Cliffs, New Jersey. 1972. P. 23.

2 — Ibid., P. 24.

وبدون المعايير يصبح عبء المناقشة لا يطاق ، ويصبح تخيل نمط السلوك الملائم في كل موقف اجتماعي أمر محير كلية • وفي الحقيقة انه اذا أردنا فعل شيء ما وعمدنا الى التفكير فيما نقصد عمله مثلا ، عندما ندخل محلا للشراء ، أو فصلا دراسيا ، أو نقطع تذكرة ، وفكرنا فيما سنقوله للبائع أو للمدرس أو لبـــائع التذاكر ، فلن نستطيع انجاز الا قدرا ضئيلا وعددا صغيرا من أعمالنا في اليوم• ولنأخذ مثلا من الحياة الواقعية لطالب ، ولنرى كيف تمكنه معايير المجتمـــع أن يبدأ يومه دون أن ينفق معظمه في مجرد التفكير عما يجب عمله ، وكيف يعمله • فعندما يستيقظ في الصباح فليس عليه أن يفكر أن يلبس حذاءه أم لا ، أو أن يحلق ذقنه بشفرة حلاقة أو بسكين ، أو يحيي زملائه باللغة العربية أو بلغة أجنبية ، أو أن يشرب الحساء بالشوكة أو الملعقة ، أو اذا كان يقود سيارة هل يعبر السيارة التي أمامه من اليمين أو من اليسار ، أو أن يدخن في حجرة الدراسة أم لا ، أو متى وكيف يتكلم في حجرة الدراسة • وهـكذا في أفعال كثيرة لا حصر لها خلال اليوم • وبلا شك تبدو هذه الأمثلة وغيرها بسيطة بل وغاية في السذاجة ، ولكن السبب في بساطتها وسهولتها يكمن في أن هناك معايير تنظم وتيسر هـــذه المواقف • وبدون تلك المعايير كان لابد من اجراء مناقشات عديدة في كل من هذه المواقف • ويمكن أن يتصور الانسان أي فوضى كانت تنشأ في هذه المواقف في حالة غياب المعايير • فمثلا كان يمكن أن يسير أحد من الناس بسيارته على الجانب الأيمن والآخر على الجانب الأيسر ، وأي الحوادث كان يمكن أن تحدث لولا أن هناك معيارا أن كل فرد يسير على الجانب الأيمن • كما أنه بدون وجود المعايير تصبح العلاقات الاجتماعية عشوائية ، بل ومحتمل أن تكون محلا للخطر • ومن ثم فالمعـــايير هي التي تعطي النظام والاستقرار وامكانية التنبؤ للحياة الاجتماعية • وهذا ما يجعل من المعايير عنصرا ذا أهمية قصوى للبناء الاجتماعي • فأي موقف اجتماعي لا معايير له يصبح مصـــدرا للفوضى والاضطراب • وان مجتمعـا بلا معايير لا يستطيع الاستمرار في البقاء ، فحيث لا يكون هناك معايير لا يكون هناك مجتمع •

تنوع المعـايير

لم يجمع علماء الاجتماع على تصنيف متفق عليه للمعايير ، وان كان معظم علماء الاجتماع عند ذكرهم للمعايير عادة يتفقون على ذكر المعاييرالآتية: القوانين والمكانات ، والقواعد ، والأساليب الشـعبية والأعراف والعـادات والطقوس والشعائر • ولكن المعايير التى يجمع علماء الاجتماع على انها اهم المعايير فى المجتمع من ناحية ، ومن ناحية اخرى لا يخلو منها اى تصنيف من التصنيفات التى يوردها علماء الاجتماع وهى الأساليب الشـعبية والأعراف والقوانين •

١ ـ الأساليب الشعبية Folkways

الأساليب الشعبيـة هى مصطلح قدمه سمنر Sumner وهو من اوائل علماء الاجتماع الأمريكيين ، وقد سمى سمنر كل عادات الجمـاعة أساليب شعبية ، ويعنى الاصطلاح حرفيا أساليب الجماعة ، اى أساليب النـاس فى اشباع حاجاتهم وللتعامل كل مع الآخر ولقيادة حياتهم • (فالأساليب الشعبية هى عادات تحكم معظم أساليب الحياة اليومية ، والاتصالات المعتادة مع الناس الآخرين • فهى تحدد ما هو صواب اجتماعيا) (١) •) وهناك كلمة أخرىوهى العـادات cutoms وهى مالوفة عند الناس ، وسوف نستعمل كلا من كلمتى العادات والأساليب الشعبية كمترادفين ، وان كانت كلمة الأساليبالشعبية هى الاكثر قبولا كمفهوم فى علم الاجتماع) (٢) •

والأساليب الشعبية قد تكون تحكمية خالصة وميسرة للحياة مثل الأوزان والمقاييس وانساق النقود التى يستخدمها مجتمع من المجتمعات ، وقد تكون

---

1 — BIESANZ : Op. Cit., P. 65.
2 — BIERSTEDT : Op. Cit., P. 226.

بعض الأساليب الشعبية لها شكل الشعائر مثل أنماط الأكل أو احتفالات أعياد الميلاد ، أو الأسلوب الصحيح لتحية الأصدقاء كالمصافحة باليد عند العرب ، أو رفع القبعة عند الغربيين ، أو التمنيات بالعافية للمريض ، أو التهنئة للأزواج الجدد ، مثل هذه الأنماط من التحية أو التهنئة أو التعزية تعتبر شعائر خاصة للسلوك والتي يطلق عليها بعض علماء الاجتماع اصطلاح تقاليد convention والبعض الآخر الذوق العام etiquette تلك المجموعات من المتوقعات المتبادلة هي ميسرة ومريحة في العلاقات الاجتماعية ٠

وتحدد أساليبنا الشعبية السلوك الصحيح في مختلف الأدوار ، فهي تميز أعمال الرجال من أعمال النساء ، وتضع المثال لما يجب أن تكون عليه سلوك السيدة الفاضلة والرجل الفاضل ٠ كما أن الأساليب الشعبية تحكم الطراز العام لمساكننا وملابسنا وأسلوبنا في الترفيه وتربية الأطفال ٠ فهي تحدد ما هو سار وجميل ٠ وهي تشكل ذلك الكم الكبير من عاداتنا ذات الجذور البعيدة في تقاليدنا ، (فالمعايير الشعبية هي ببساطة الأساليب المعتادة والعادية لجماعة لفعل الأشياء ٠٠٠ والأجيال الجديدة تتشرب الأساليب الشعبية جزئيا بتعليم متعمد ، ولكن أساسا بالملاحظة وممارسة جزء من الحياة التي حولهم ، فطالما الأطفال محاطين بالأساليب الشعبية وهم يشاهدون باستمرار أنها أساليب فعل الأشياء ، فمن ثم تصبح هي الأساليب الوحيدة والصحيحة) (١) ٠

فالأساليب الشعبية هي معايير علينا أن نتطابق معها ، والتطابق مع الأساليب الشعبية لا يتطلبها القانون ، ولا تجبرنا عليها أي هيئة ٠ فليس هناك

---

1 — HORTON, PAUL and HUNT, CHESTER : «Sociology» Fourth Edition. McGraw-Hill Book Company. New York. 1976. P. 48.

قانون يطلب منا لبس الحذاء فى الشارع ، أو النوم فى سرير أو الافطار فى الصباح ، أو الحديث باللغة العربية ، ورغم ذلك نفعل كل هذه الأشياء والاف مثلها دون تفكير ، ذلك يرجع الى أنها مسألة عادة ، أنها أساليبنا الشعبية ، فهى مؤيدة اجتماعيا ولكن غير رسمى ولا عن عمد ، ورغم ذلك فهى مؤثرة ٠

وبالطبع كل مجتمع له أساليب شعبية خاصة به ، فكثيرا ما يكون هناك أساليب شعبية مسموح بها فى مجتمع وفى نفس الوقت ممنوعة فى مجتمعات أخرى ، بمعنى أن ما هو صواب فى مجتمع ما قد يكون خطأ فى مجتمع آخر ٠ واذا كانت الأساليب الشعبية تتغير من مكان الى مكان فهى أيضا تتغير فى داخل المجتمع الواحد من زمان الى زمان ، فالنساء يعملن الآن أعمالا كثيرة مما كان يعملها الرجال فهن مدرسات وطبيبات ومحاميات وأساتذة فى الجامعات ، وكانت الأساليب الشعبية فى القرن الماضى تحرم عليهن القيام بهذه الأعمال وتعتبرها أعمال الرجال فقط ٠

ويلاحظ أن (الأساليب الشعبية مقواة بالمكافآت مثل التأييد والتقدير والقبول فى الجماعة) (١) فالانسان يجب أن يكون حسن العلاقات مع الآخرين وخاصة أولئك الذين يعتبرهم جماعته ٠ فنحن عادة نتطابق مع الأساليب الشعبية لأننا نكره أن نكون مختلفين عن جماعتنا ، ولا نحب رفض أصدقائنا لأنماط سلوكنا ، لأننا فى الحقيقة فى حاجة لتأييدهم وموافقتهم من أجل أن نعيش معهم فى جماعة ٠ وهكذا عندما نفعل كما يفعل الآخرون فنحن نكافأ بتأييدهم وقبولهم لنا ، وهذا التأييد والقبول يعتبر جزاءا يشجعنا على التطابق ونحن أيضا عندما نتطابق مع معايير جماعتنا نحن نعلن لجماعتنا ولاءنا ونؤكد عضويتنا فى الجماعة فقيام المسلم بذكر الله عند الأكل وذكر الله عند دخول منازل الغير يعتبر اعلانا منه أنه عضو فى الجماعة المسلمة وهو بالتالى يتلقى التأييد والقبول بل والاستحسان من جماعته وهذا فى حد ذاته جزاءا

---

1 — BIESANZ : Op. Cit., P. 65.

حسنا فى الدنيا · واذا كان هذا ما يسمى بالجزاء الايجابى ، فهناك ايضا جزاءات سلبية لمن يخرج على الأساليب الشعبية مثل النبذ والطرد واللاقبول من الجماعة · فالطفل الذى يحيى الضيوف بأدب يكافأ بالابتسامات والهدايا، اما اذا كان جافا او اظهر سوء أدب مع الضيوف تعاقبه والدته بالاستياء منه وعدم اعطائه الهدايا ، والنبذ والطرد من حضرة الضيوف · وعادة لا يرغب معظم الناس أن تصفهم جماعتهم بالفظاظة او الجهل او قلة الأدب ، فهميرغبون فى الانتماء والقبول من جماعتهم ولهذا يتطابقون عادة حتى بدون التفكير فى أساليب بديلة ·

ويلاحظ ان هذه الجزاءات سواء الايجابية او السلبية لا تقوم بتنفيذها اى باجبارنا عليها اى هيئة معينة فى المجتمع ·

وغنى عن البيان انه لا يمكن حصر الأساليب الشعبية فى مجتمع ما حصرا كاملا ، لأنها تكاد تكون لا متناهية ، وان اى قائمة تحاول حصرهاسوف تكون بلا نهاية · وكل ما نستطيع ان نقوله فى هذا المقام هو ان الأساليب الشعبية هى احدى خصائص المجتمعات الانسانية ، وبدونها لا يمكن أن يوجد مجتمع · ومن ثم فهى تشكل جزءا هاما من البناء الاجتماعى وتساهم فى انتظام واستقرار العلاقات الاجتماعية ·

ب ـ الأعراف Mores

كلمة العرف More هى المصدر اللاتينى لكلمة الأخلاق Moral ذلك يعنى أن العرف يختلف عن الأساليب الشعبية · بمعنى انالسلوكالأخلاقى يختلف عن مجرد السلوك المعتاد · (بعض الأساليب الشعبية اكثر اهمية من الأخرى · ومن ثم نحن نعرف فئتين من الأساليب الشعبية :

(١) تلك الأساليب التى علينا أن نتبعها لأنها سلوك حسن ومؤدب -

(ب)وتلك التى يجب أن نتبعها لأن هناك اعتقادا بأنها جوهرية لرفاهية الجماعة ٠

فنحن نعنى بالأعراف تلك الأفكار القوية عن الحق والخطأ التى تتطلب أفعالا معينة وتحرم أخرى ٠ وعادة ليشترك أعضاء المجتمع فى الاعتقاد بأن الخروج على المعايير سوف يؤدى الى دمارهم) (١) ٠

فالأعراف هى المعايير التى تعتبر حيـوية لرفاهية الجماعة ، فهى ليست ببساطة السلوك الصحيح والقبول اجتماعيا مثل الأساليب الشعبية ٠ فقـد سمى سمنر كل عادات الجماعة أساليب شعبية . ولكنه قصد بالأعراف تلك الأساليب الشـعبية التى يعتبرها المجتمع هامة لرفاهيته ٠ فقـد قال سمنر Smnur ان العرف هو تلك الممارسات التى يعتقد المجتمع أنها تقود الى الرفاهية الاجتمـاعية ، بينما الأساليب الشـعبية لا تتضمن فـكرة الرفاهية الاجتماعية ٠

انه مثلا من الصعب رؤية أن الحلوان (البقشيش) يقود الى الرفاهية الاجتماعية ، فيمكن زوال (البقشيش) دون تهديد جدى لاستمرار بقاءالمجتمع ولكن الموقف يختلف تماما بالنسبة للسلوك الجنسى ، فالانحراف فى هـذا المجال ينظر اليه على أنه تهديد للأسرة ومن ثم للمجتمع ٠ فالرجل الزانى فى مجتمعنا ينظر اليه على أنه لا أخلاقى ، بل يعتبر قد اقترف جريمة تهدد بقاء المجتمع واستقراره ، فالانسان الذى يهدر هذا العرف ينظر اليه على أنه خطر على المجتمع ومن ثم يعامل باقصى العقوبة ٠ ولا يقتصر هذا على مجالالسلوك الجنسى ، ولكن أيضا الطالب الذى يغش فى الامتحـان ينظر اليـه على أنه لا أخلاقى ويفصل من الجامعة فورا ، وكذلك التاجر الذى يغش فى السلعة أو السعر أو الميزان ينظر اليه على أنه لا أخلاقى وأن سلوكه يهدد كيانالمجتمع

---

1 — Ibid., P. 48.

ومما هو جدير بالذكر أن الأعراف لم يخترعها فرد أو فكر فيها انسان أو أنتجت عن قصد لأن فردا قرر أنها أفكار حسنة · انمـا الأعراف انبعثت تدريجيا من التجارب المعتادة للناس ، وبدرجة كبيرة بدون قصد أو اختيار بين بدائل أو حتى وعى بها · فقد نشأت الاعراف من قرار جماعة أن فعلا معينـا يبدو ضارا ولابد من منعه ، أو بالعكس أى أن فعلا معينا من الضرورى وحتى أنه لابد من فعله ومن ثم فالاعراف هى حكم جماعة معينة عما يؤدى الىرفاهية الجماعة ·

وهكذا فالأعراف هى المعايير التى يعتبرها المجتمـع هامة لرفاهيتـه الشعبية ومن ثم قواها بدقة وصلابة كبيرة ، فالجزاءات التى يقصـــدها قد اكتسبت مضمون عاطفى كبير ، فهى مؤيدة بالقيم السائدة فى الثقافة (فتحدد الأعراف ما هو صواب وما هو خطأ ، الأخلاقى وغير الأخلاقى من الأفعـال والأفكار وحتى المشاعر · ويمكن التعبير عنها فى مصطلح السـلوك الواجب Must-behavior ، أو قـــد تكون سلبية لا تفعل وفى هـــذه الحالات تسمى محرمات Taboos (١) · فالجزاءات التى تؤيد الأعراف مشحونة بالعواطف الاجتماعية أكثر من تلك التى تؤيد الأساليب الشعبية · والاحترام هو مكافأة الذين يطيعون المعايير ، ويشعر أولئك الذين يخرجون عليها بالخجل والعار اذا اكتشفتهم جماعتهم ، ويشعرون بالذنب اذا لم يكتشفوا · وهذه العواطف الاجتماعية تختلف من مجتمع لمجتمع · فقد تنبذ الجماعة الخارجين على المعايير أو يجلدوا أو يسجنوا أو ينفوا أو يعدموا ·

ويلاحظ أنه اذا لم يحاسب الأفراد على سلوكهم فان نسيج التوقعات المتبـــادلة Mutual Expectations يتحطم ويتحطم معـه البناء الاجتماعى · فالعقاب الذى يوقع على الفعل الخاطىء ليس لمجـرد تعليـم

---

1 — BIESANZ : Op. Cit., P. 66.

الشخص المذنب ولكن بقدر أكبر لتذكير الآخرين بأن المعايير لابد أن تطاع ـ ولهذا تعلم الأعراف للأطفال ليس كمجموعة من التوقعات ولكن كمجموعة من المسلمات المقدسة ٠

وهناك فى ثقافتنا معايير ذات تاريخ طويل تتضمن لبس لباس معيـن للرجال وآخر للنساء ، والولاء للوطن . ومن بين المحرمات (تابو Taboo) القتل والسرقة والخيانة وزواج المحارم ٠ وعادة يقـال ان المعايير يمكن أن تجعل أى شىء صواب ٠ فالسلوك الذى يكون محرما بشدة فى مجتمع يمكن أن يكون مسموحا به فى مجتمع آخر٠ففى بعض الثقافات،مثل ثقافة الجاهلية كان يوجد وأد البنات ، وفى بعض المجتمعات البدائية (بعض قبائل الهنود الحمـر) قتل الشـــيوخ ، وفى ثقـافات أخـرى يعتبـر اكل لحـــوم البشر Connibalism امرا اخلاقيا مسموحا به ٠

ويلاحظ أن الأساليب الشعبية للثقافات الأخرى تدهشنا لاختلافها، بينما الأعراف اذا كانت مختلفة بشدة عن أعرافنا فهى تصدمنا وترعبنا ونعتبرها لا اخلاقية وخطيئـــة ٠ وعادة يشـــعر الناس الآخرون بنفس الشـــعور تجاه معاييرنا ٠

الأعراف مثل الأساليب الشعبية تخضع للتغير ولكن اكثر بطئا ٠ فمثلا كان الرق يعتبر عملا اخلاقيا والآن يعتبر عملا لا أخلاقيا فى معظم الثقافات ٠

جـ ـ القوانين Laws

المعايير التى نسميها قوانين هى الأكثر معرفة لدى الناس ، ومع ذلك ليس كل المجتمعات لديها قوانين ، وان كان كل المجتمعات لديها اساليبشعبية وأعراف ٠ ففى مجتمع صغير موحد تكون الجزاءات اللارسمية كافية لجعل السلوك يتطابق مع المعايير ، ولكن فى مجتمـع مركب يصبح من الضرورى

وجود معايير ذات جزاءات رسمية لتوفق بين سلوك أعضاء المجتمع ، حتى يستطيع المجتمع الاستمرار فى أداء وظائفه بأسلوب منتظم ٠

فالقوانين لا تظهر الا فى المجتمعات التى لها تنظيم سياسى أى لها دولة وحكومة ٠ اذ أن القوانين تسنها هيئات تشريعية ذات سلطة تشريعية مستمدة من هذا التنظيم السياسى ٠ وبالاضافة الى ذلك فعادة القوانين مكتوبةوتسجل بأسلوب ما . وهذا يوضح سبب عدم ظهورها فى المجتمعات البدائية اذ أنهـا لا تقرأ ولا تكتب ٠ وان كان هناك بعض علماء الاجتماع يمدون معنى القانون ليشمل كل تلك العادات التى يلاحظون أنها تؤيدها سلطة معروفة فى هـذه المجتمعات البدائية ، ويطلقون عليها القانون البدائى ٠

ولكن معظم علماء الاجتماع يؤيدون اطلاق اصطلاح القانون على تلك المعايير التى تسن وتسجل ، وهذا هو ما يمايز بين القوانين من ناحية وبين الأساليب الشعبية والأعراف من ناحية أخرى ٠ وهـذا ما قاله سمنر من أن الأساليب الشعبية والأعراف تلقائية cresive أى تنمو تلقائيا ودون وعى أو قصد ، بينما القانون يسن ويشرع enacted ٠ ولهذا عندما نقول كلمة القانون غير المكتوب فنحن فى الحقيقة نشير الى العرف والأساليب الشـعبية وليس القانون ٠

فالقوانين هى قواعد للسلوك مصاغة عن قصد ومؤيدة بسلطة خاصة ، والجزاءات التى تؤيدها رسمية وتنفذها هيئات معينة مثل المحكمة ٠ فالقانون ملزم مباشرة بحكم أنه مسن ، ولا يصدر الزامه عن الرأىالعام ، أى أنهلايعمل بطريقة غير رسمية ، ولكنه يعمل بسلطة الدولة وباسلوب رسمى ٠ فالقـانون يفترض سلفا قيام دولة ، كما أنه لا يمكن أن تقوم دولة بدون أن يكون لهـا قوانين محددة تفرض السلام والأمن والنظام بينالناس ، ووجود كل منالدولة والقوانين مرتبط بالآخر ولا ينفصل عن أخيه ٠ ولهـذا تعرف الدولة بأنهـا الشعب الذى يحيى خاضعا للقوانين ، وهى الشعب المنظم وفقا لأصولالقانون،

والدولة بهذا التعريف تشمل السلطات والأفراد ، السلطات من شأنها حماية الأفراد ووقاية الحقوق وحسم ما ينشأ من نزاع بين الأفراد أو الجماعات الذين تتعارض مصالحهم ، ولولا هذه السلطات التشريعيـة التى تسن القـوانين لاستعصت الألفة والتطامن والتماسك بين أعضاء المجتمع ٠

فالقوانين تخدم عدة أغراض :

(أ) هى تؤيد الأعراف التى قبلتها ثقافة الجماعة السائدة فى المجتمع، ومثال الأعراف المؤيدة بالقـانون ، مسئولية الرجـل عن زوجتـه وأولاده ، والتحريم ضد القتل والسرقة ٠

(ب) وهى تنظم المواقف الجديدة التى لا تتناولها العادات ، فعند اختراع السكك الحديدية والسيارات والطائرات والراديو والتليفون والتليفزيون ، كان على الحكومة أن تضع القوانين لتضبط وتنظماستخدام هذه المخترعاتالجديدة مثل تنظيم المرور ٠

(جـ) وهى تملأ الفجوة عندما الأساليب القديمة تثبت عدم فاعليتها فى مواجهة أزمة كمحاولة بعض الحكومات اصدار قوانين تحـدد أسعار بعض السلع لمواجهة أزمة ارتفاع الأسعار ، حيث أن الأسلوب القديم الذى كانيحدد الأسعار وهو نظام العرض والطلب ، أصبح فيه اجحاف بالفئات الفقيرة ٠

(د) وهى تعمل على جذب أنماط الثقافة الجارية فى الحياة الواقعيـة لتتمشى مع الأنماط المثالية والقيم السائدة ٠ مثل قوانين الضرائب التى تأخذ من الغنى لمساعدة الفقير بالمستشفيات والمدارس والخدمات المحليـة ، ومثل قانون يهدف الى الاصلاح الاجتماعى ٠

وغنى عن البيان أن القوانين عديدة وشاملة ومهمة جدا فى المجتمعات المركبة ، وحتى أنها تحظى باهتمام كثير من المتخصصين مثلالمحامينوالقضاة والشرعيين وعلماء القـانون ، بل وقام لهـا فرع خـاص من فروع المعـرفة

الانسانية · ولقد وصل الاهتمام بالقانون حتى أنه اعتقد كثير منمفكرىالغرب أن له أصلا الهيا ، وهذا ما يذهب اليه أصحاب نظريات الحقوق الطبيعية · ويلاحظ أنه فى المجتمعات الاسلامية المصدر الأساسى للقوانين هو القرآن والسنة أى أن لها مصدرا الهيا أيضا · وان كان هذا لا يمنع أنه حتى فى المجتمعات التى تستمد شريعتها من مصدر الهى ، أن يوجد بها قوانين نشأت عبر الزمن من حاجة المجتمع اليها ، كقوانين تنظيم المرور ، وقوانين تنظيم دخول الموانى والمطارات ، وقوانين التعليم ، وقوانين الرقابة الصحية ، هذه القوانين تسمى بالقوانين الوضعية بلغة الغرب وهى عند المجتمعاتالاسلامية ما يعبر عنها علماء الشريعة فى عبارات جامعة (لا ضرر ولا ضرار ـ مصلحة المجتمع) حتى تسمح للمجتمعات بالتعبير عن احتياجاتها والتغير فى الاتجاه الذى يحقق صالحها ولا يضر بالجماعات الاجتماعية ·

ونلاحظ أيضا أن المجتمع المركب يتكون من جماعات اجتماعية مختلفة ، وكل جماعة من هذه الجماعات لها عرفها وأساليبها الشعبية التى تختلف كل عن الأخرى · بمعنى أن المجتمعات المركبة ليستلها ثقافة واحدة مثلالمجتمعات البدائية · وهذه الجماعات تدخل فى علاقات اجتماعية توجهها المعاييرالمختلفة لكل جماعة ، ومن ثم فقد يقع الصراع بين هذه المعايير المختلفة ، هنا يحتاج الأمر الى معيار أكثر سلطة وسيادة ويمثل المجتمع كله ليقضى ويحكم بينهذه الجماعات ومعاييرها المختلفة ، ذلك هو القانون وتلك هى احدى الوظائف الأساسية للقانون · ومن ثم فالقوانين لها وظيفة هامة فى بناء المجتمع ، وتعتبر القوانين عنصرا هاما فى استقرار المجتمع واجبار أعضائه على اتباع نوع من العلاقات الاجتماعية المضبوطة والمؤيدة بسلطة الدولة ·

معايير الجماعات المنظمة :

كل الجماعات المنظمة لها قواعدها وترتيباتها الرسمية التى تضع واجبات ومسئوليات الأعضاء كل نحو الآخر ونحو المنظمة نفسها · ونحن

نسمى هذه المعايير معايير منظمات • فالكلية والجامعة لها قواعدها الرسمية المنفصلة عن قوانين الدولة والتى قد تتطابق مع القوانين أو لا تتطابق معها • وبالمثل كل الجماعات الاجتماعية المنظمة فى المجتمع لها معاييرها الخاصة •

وواضح أن هذه المعايير تخص فقط أعضاء المنظمة ، وعادة تكون هذه المعايير أكثر ضبطا وتنفيذا فى تنظيمها للسلوك من قوانين الدولة • وهكذا يتمتع المدرس فى مدرسته ربما بامتيازات أكثر ولكن أيضا يعانى من قيود أكثر من أولئك الذين هم مجرد مواطنين • فمثلا يستطيع المواطن العادى أن يأكل وهو يسير فى الطريق العام ، ولكن المدرس الذى يأكل فى الطريق العام تنظر اليه جماعته باشمئزاز لأنه خرج على معايير الجماعة • وهكذا تفرض المنظمات مجموعتها الخاصة من المعايير على الأفراد الذين ينتمون اليها •

انه من العجيب فى هذا الشأن أن بعض المنظمات المساعدة للدولة مثل الجيش ، تعتبر أكثر صلابة فى تنظيمها للسلوك اليومى لأعضائها عن الدولة نفسها • وأكثر من ذلك ففى المجتمع العام يعتبر الجبن أمام عدو مجرد انحراف عن المعايير ولا يعاقب عليه القانون ، ولكن نفس الفعل فى الجيش ، أى الجبن أمام العدو قد يصل فيه العقاب الى حد الاعدام ، فهو انحراف شديد عند معايير هذا النوع من المنظمات •

يكون جزاء الخروج على معايير المنظمة واضح جدا • واستمرار الخروج عليه يؤدى الى فصل العضو من المنظمة وينتج عنه فقد حقوق وامتيازات العضوية ، فنقابة الأطباء تفصل من عضويتها الطبيب الذى يخرج على معاييرها ، وكذلك المحامى الذى يخرج على معايير النقابة يفصل منها •

الاختلاف الأساسى بين القوانين التى هى معايير الدولة ومعايير المنظمات الأخرى ، هو أن الأولى تستخدم لكل مواطن فى البلاد طالما أنهم خاضعون لتشريع الدولة ، بينما معايير المنظمات تنطبق فقط على أعضاء المنظمة • كما أن القانون يطبق اجباريا على كل عضو فى المجتمع ، ولكن معايير الجماعة

المنظمة تنطبق اختياريا ، بمعنى أى تنطبق على الفرد عندما يختار أن يكون عضوا فى هذه الجماعة ٠

(ويلاحظ أن الدولة ما هى الا منظمة مثل المنظمات الأخرى ، ولكن فقط أكبر وأشمل ٠ فهى المنظمة التى ينتمى اليها كل أعضاء المجتمع ٠ ومع ذلك ما هى الا منظمة من بين المنظمات التى يتكون منها المجتمع ، وهكذا يصبح القانون أيضا معايير جماعة اجتماعية ، ولكن أصبح لها اسم خاص وهو القانون فقط بسبب أن الدولة نوع خاص من المنظمات ونوع هام جدا من المنظمات فى المجتمعات المركبة الحديثة) (١) ٠

وهكذا عندما نتحدث عن القوانين نحن نعنى معايير الدولة ، وعندما نتحدث عن القواعد الرسمية الأخرى نحن نعنى المنظمات الأخرى فى المجتمع ٠ وفى كل من الحالتين سواء فى حالة الدولة أو الجماعات المنظمة ، نقول ان المعايير قد وصلت الى مرحلة الانتظام Institution Lized أى أنها تعددت وسنت enacted ٠ (فنحن نتحدث عن انتظام المعايير Institutionlize Norms عندما تصبح للمعايير مجموعة من الجزاءات الايجابية والسلبية ، وعندما يقبلها أعضاء النسق كشرائع وعندما يكون أعضاء النسق قد تمثلوها واستدمجوها Internalizedتمايا) (٢) ٠

ويصبح الفرق بين معايير الدولة ومعايير الجماعات المنظمة فرق فى الدرجة فقط ٠ ١ ــ القوانين أكثر نفاذا وشمولا عن معايير المنظمات الأخرى، وقابلة للتطبيق على أعضاء المجتمع كله ٠ ٢ ــ يختلف أسلوب الدولة فى تطبيق الجزاءات عن الجماعات المنظمة الأخرى ، حيث لا يوجد أى منظمة غير الدولة يمكنه أن يحكم بالاعدام أو الجلد أو السجن على عضو فيه خرج على معاييره ٠

---

1) Bierstedt : Op. Cit., P. 234
2) Allyn : Op. Cit., P. 23.

العلاقات بين المعايير

هناك علاقة بين الأساليب الشعبية والأعراف والقوانين فبالرغم من أن كلا من هذه المعايير مؤيدة بجزاءات مختلفة ، ومن ثم ليس لنا أن ندعى أن العرف بالضرورة أكثر الزاما من الأساليب الشعبية ، أو أن القوانين بالضرورة أكثر قسوة من كل من العرف والأساليب الشعبية فقد تكون الجزاءات السلبية فى بعض الحالات أكثر قسوة ، ولكن العقوبة الأشد لا تؤدى بالضرورة الى تطابق أشد ، وأكثر من ذلك ليست غرامة مالية صغيرة بالضرورة أكثر قسوة من مجرد السخرية .

كما يلاحظ أن فى كل دولة يوجد قوانين التى تخرج على أحدها فى بعض الحالات ، فاذا كان مجرد الخروج على القانون جريمة فنحن جميعا مجرمون فمثلا هل هناك أحد لم يقد سيارته مرة أزيد من السرعة القانونية لمنطقة معينة؟ نحن نخرج على كثير من القوانين الوضعية دون أن ينالنا جزاء ، وكثيرا ما يرجع ذلك الى أن كل الناس الآخرين يفعلون ذلك ، أى أن هذا الفعل اكتسب تأييدا اجتماعيا مضادا لما يحكيه القانون . فهناك كثير من القوانين الوضعية مهجورة وعقيمة . اذ بقيت فى الكتب مدة طويلة بعد انقضاء الحاجة اليها ، أى مدة طويلة بعد فقدها تأييد القبول العام لها .

وهكذا ، فبالرغم من اننا يمكننا الخروج على بعض القوانين دون الخوف من العقاب ، فاننا جميعا نفكر مرتين قبل الخروج على أحد الأساليب الشعبية أو العرف ، لأن الجزاءات توقع سريعا على الخارجين ، وهذه الجزاءات تجد التأييد والعون من المجتمع ، فلا يمكن لأحدنا أن يحضر الى الكلية دون حذاء ، أو أن يخلع ملابسة ويمشى فى الطريق ، بالرغم من أنه لا يوجد قانون يمنع هذه الأفعال ، ومن هذا نرى أن القانون ليس بالضرورة أداة أكثر فاعلية للضبط الاجتماعى من الأساليب الشعبية أو العرف . وفى

بعض الحالات مثل طلب دفع الضرائب يكون القانون أكثر فاعلية للضبط الاجتماعى من الأساليب الشعبية أو العرف ·

وفى المجتمعات البدائية التى لا يوجد فيها حكومات واضح أنها لاتعرف القوانين · ولكن كل المجتمعات بدون استثناء لديها عرف وأساليب شعبية ، فلا يمكن أن يوجد مجتمع بدونها ، ولا يمكن الحياة فى مجتمع انسانى بدونها ·

ويلاحظ أن القوانين التى تظهر فى المجتمعات المركبة ، كثير منها ما هو الا بلورة لمعايير هذه المجتمعات ، وعادة (تكون القوانين أكثر فاعلية عندما تكون منغرسة فى الأعراف) (١) · ويصبح دور القانون تأييد العرف نظرا لأهميته بجزاء اضافى مؤيد من الدولة وقوتها البوليسية ، ومن ثم يأخذالعرف شكله الرسمى فى القانون ، ولكن يلاحظ أن الأعراف موجودة قبل أن تسن القوانين ، وقد يتغير العرف ويظل القانون على ما هو عليه ، ذلك يعنى انه غالبا ما تتخلف القوانين نظرا لتغيرها ببطىء · وفى الحقيقة فان القوانين غالبا ما تفشل فى ملاحقة العرف فتتاخر فى عملية التغير الاجتماعى ، ومن ثم فى بعض الحالات تمثل التاثير المحافظ فى المجتمع ، وان كان هـذا ليس صادقا بصفة مطلقة . لأنه فى بعض الأحيان تسن القوانين قبل أن يحظى بتأييد المجتمع ، ومن ثم فى هذه الحالة يكون من الصعب بل فى بعض الحالات من المستحيل تنفيذها فى المجتمع ·

وعادة تعتبر الأسـاليب الشـعبية أكثر قابليـة بل وسرعة للتغير من القوانين · فكثير من الأساليب الشعبية ترتبط بالمستحدثات مثلا ، وهـذه قد تتغير من سنة لأخرى · وأكثر من ذلك أن معظم الأساليب الشعبية لا تاخـذ شكلا رسميا فى القوانين ، ومن ثم ليست خاضعة لهذا التاثير الاضافىالذى يؤدى الى الثبات ·

---

1) Biesanz : Op. Cit., P. 70

فاذا كانت القوانين فى كثير من الحالات بلورة وتعريفا رسميا للتحريمات ومبيحات تتضمنه أصلا فى العرف ، فانه ايضا ليس فقط محتمل ،ولكن غالبا ما يحدث الصراع بين القوانين والعرف فى المجتمعات المعاصرة بسبب الفجوة الثقافية ، والفجوة الثقافية تعنى أنه اذا كان هناك قانون استمد أصله من عرف ، وتغير هذا العرف بتغير حاجات المجتمع ، وظل القانون على حاله ، نقول ان هذا القانون تخلف ولم يلاحق التغير الذى حدث فى الأصل الذى استمد منه القانون وجوده • وتوضح القوانين المهجورة هذه النقطة •

وفى بعض الأحيان يظهر الصراع بين هذين النوعين من المعايير (القانون والعرف) موقفا هاما ، بل قد يشكل خطورة على المجتمع • وليس التفاوت والتباعد بين العرف والقانون دائما يأخذ هذه الصفة المأساوية . فمثل هذا التفاوت لا يمكن تجنبه كلما زاد تركيب المجتمع • وفى مثل هذه الحالات ، بل فى معظم حالات الصراع ، فان العرف هو الذى يسود وليس القانون • فاذا كان الصراع حول شىء يجب اعطاؤه فانه القانون الذى عليه أن يخضع لهذه القاعدة وليس العرف طالما أن هذه القاعدة هى ذاتها عرف جرت به رغبة المجتمع ، وأصدق مثال على ذلك هو القانون التجارى ، الذى يقضى بالعرف التجارى بين التجار اذا كان القانون يخالف العرف •

ولا يعنى هذا ، أن القانون ليس له ما للعرف من أهمية ، فالقوانين لها أهميتها ، وخاصة فى المجتمعات الكبيرة حيث العلاقات الاجتماعية ليست أولية ولكنها ثانوية وليست شخصية كما فى المجتمعات الصغيرة ، ولكنها وظائف ناجمة عن تفاعل الجماعات الاجتماعية • فمثلا فى المجتمعات الكبيرة هناك من لا يرغب فى دفع الضرائب لولا أنها مؤيدة بالقانون . ونحن كأعضاء فى هذا النوع من المجتمعات نعرف أهمية هذه الأفعال ، حيث يؤيد العرف القوانين التى يتطلبها المجتمع ، ولكن العرف بذاته لا يمكن أن يؤمن ويؤكد التطابق ، لأن جزاءات العرف لا تعمل بالكفاءة المطلوبة فى هذه المواقف مثل

دفع الضرائب أو دفع ايجار المنزل · فاذا لم يكن الفرد خاضعا لعقاب قانونى عند عدم دفع الضرائب أو ايجار المنزل ، فانه يمكنه الخروج على العرف فى هذا الخصوص دون أن يناله جزاء · وجماعته التى ينتمى اليها لن تكشف جريمتـه ، ومن ثم لا تستطيع التعبير عن استيائها وعدم قبولهـا لفعلتـه · فالقانون الجنائى مثلا وضع لمن يخشى العقاب ولا وازع له من عرف ، ولذلك سماه بعض المشرعين (الأخلاق فى أقل مستوى) · ويريدون بذلك أن القانون الجنائى بأوامره ونواهيه وعقابه وضع للانسان الذى يخشى العقاب البدنى·

لماذا نتطابق مع المعايير

لقد رأينا أن المجتمـع يتكون من جمـاعات ، وأنه يباشر علينا ضغطا لنتطابق مع المعايير ، وأحيانا بعض المعايير تبلورها الحـكومة وتطبقها مثل القانون · ومن السهل رؤية أننا لا نستمتع برفض زملائنا لأننا لا نستطيع تحمل العزل الاجتماعى وخاصة من الجماعة التى ننتمى اليها أو العزل بواسـطة السجن ، ومن ناحية أخرى من السهل رؤية أننا نستمتع بتأييد وقبول أعضاء جماعتنا لنا ، وأن هذا فى ذاته يعتبر أكبر مكافأة · ولكن الرجاء فى المكافأة والخوف من العقاب ليس السبب الوحيد الذى يدعونا للتطابق مع معاييـر مجتمعنا · ولكن هناك أسس أخرى للتطابق ، وهذه التى سنتكلم عنها بدون التمييز بين القانون أو العرف أو الأساليب الشعبية ·

(أ) التعليم والتثقيف :

فأول سبب لتطابقنا مع المعايير هو أننا قد تعلمنا أن نفعل ذلك ، فمنذ طفولتنا المبكرة تعلمنا أن نلاحظ معايير مجتمعنا · فالمعايير شأنها شأن الوجوه الأخرى من الثقافة نجدها فى المجتمع ونتقبلها دون مناقشة ، لأنه فى السن المبكرة نتلقاها كحقائق غير قابلة للمناقشة ، وخاصة أنه فى هذه السن المبكرة

لا يكون لدينا القدرة الادراكية التى تمكننا من مناقشتها · فمثلا تعلمنا أن نحترم الأكبر منا سنا ، وتعلمنا أن ناكل بأسلوب ، معين وأن نلبس نوعا من الملابس ، وأن لا ننطق الكلمات البذيئة ، وأن نكتب ونقرأ من اليمين الى اليسار ، الى ما لا نهاية من التعليمات · فعملية التنشئة الاجتماعية هى التى يتعلم بها الطفل معايير مجتمعه ، وبعد فترة تصبح هذه المعايير هى الصواب والأسلوب الصحيح لأداء الأشياء ، بل فى بعض الأحيان تصبح الاسلوب الوحيد وما عداها هراء ·

(ب) الألفة :

السبب الثانى لتطابقنا مع المعايير أننا بمرور الوقت نألفها ونعتادها ، ففى كثير من الحالات ما نعتاده يصبح مألوفا لدينا · فمثلا نحن نتعلم استخدام الملعقة فى الصغر وبعد فترة يصبح استخدامها مسألة عادة · وهكذا فالتكرار للفعل يحوله الى عادة وهكذا تتثبت جذور الأساليب الشعبية فى الكائن الاجتماعى · وعندما يصبح انسان معتادا لنوع من الممارسة ، فهو يأتيها تلقائيا بدون جهد أو تفكير · ومن ذلك الوقت يصبح الخروج على الأساليب الشعبية أصعب بكثير من التطابق معها ·

(ج) المنفعة :

والسبب الثالث لتطابقنا مع معايير مجتمعنا أنه عادة نقدر قيمة منفعتها، فهى تمكننا من التفاعل مع الآخرين بأسلوب يؤدى الى منفعة الكل ، فهى تساهم فى تيسير الحياة الاجتماعية · فمثلا ، واضح أن الأسلوب العادل لتوزيع تذاكر طائرة مثلا حيث هناك عدد محدد من الكراسى هو بيعها أولا لمن قدم أولا، فنحن نرى الرشد فى عبارة من يأتى أولا يخدم أولا· فنحن بصفة عامة لانسمح للأقوى أن يكون على رأس الطابور لمجرد أننا نعرف أنه يمكنه أن يشق طريقه بالقوة ، فمثل هذا الموقف سوف يؤدى الى الفوضى وانتصار القوة على النظام·

وبالمثل نحن نقف بالسيارة عندما نرى النور الأحمر ونسير عندما نرى النور الأخضر . ونحن نفعل ذلك ليس فقط لأننا تعلمنا هذا أو لأننا اعتدناه ، ولكن لأننا نعلم أن فى ذلك فائدة وأمنا لنا جميعا • وهكذا فى كثير من المواقف الاجتماعية نعرف الكفاءة الرشيدة للمعايير التى نتطابق معها •

(د) التوحد مع الجماعة :

والسبب الرابع لتطابقنا مع المعايير ، هو أن التطابق وسيلة للتوحد مع الجماعة • فقد نتطابق مع معايير جماعتنا الاجتماعية ، مثلا ، أكثر من معايير الجماعات التى لا ننتمى اليها ، ليس لأننا نعتبر معاييرنا أرقى ، وليس لأننا تعلمنا وألفنا معاييرنا ، ولكن لأننا عندما نتطابق مع معاييرنا فنحن نعبر عن عضويتنا فى جماعتنا وتوحدنا معها •

ويلاحظ أنه ممكن أن كل هذه الأسباب تعمل معا فى موقف اجتماعى واحد ، وفى موقف آخر قد يعمل واحد أو أكثر •

ويلاحظ أيضا ، أن مجرد وجود المعايير لا يعنى أنها دائما مفهومة ومطاعة ويتم التطابق معها تلقائيا ، ذلك لشىء واحد هو أن المعايير نفسها ليست قاطعة • فنحن نسمع كل يوم أساليب شعبية وأعراف تناقش فى عبارات مثل (انها ليست خطيئة) (هل تعتقد أننى اقترفت جرما) (هل لابد أن البس السواد فى الجنازة) • وحتى القوانين التى كتبت بعناية ، تخضع للمناقشة بين المحامين من ناحية لتفسيرها وتطبيقها •

كما انه خلال فترات التغير السريع ، يحدث الخروج على المعايير بشكل واسع اذ مجرد أن توضع المعايير موضع المناقشة ، تتضاءل قوة المعايير وتصبح فى حدها الأصغر • فالأعراف التى توضع موضع المناقشة لم تعد معايير ، اذ أن معنى ذلك أن المعيار قد فقد تأييده الاجتماعى ، وكذلك القبول الاجتماعى •

(تشكل معايير الثقافة مع الجزاءات الرسمية واللارسمية التى تؤيدها نسق الضبط الاجتماعى فى المجتمع ، ولكن المعايير نفسها لا تضبط أى شىء ، اذ يفسر الناس ويعرفون ويؤيدون المعايير عندما يتفاعلون فى جماعة ، وفى عملية التفاعل تنبعث معايير جديدة أو تعريف جديد لمعيار قديم) (١) ٠

صراع المعـايير

يعتبر الصراع بين المعايير من أحد أهم المواضيع فى تحليل البناء الاجتماعى وفهمه ، اذ يمكن أن يكون الصراع بين المعايير محددا هاما لسـلوك الأفراد والجماعات والمنظمـات والمجتمعات ٠ اذ تمكننا معرفة مواطنه فى البنـاء الاجتماعى ليس فقط من فهم أحسن لأنماط السلوك ولكن أيضا امكانية التنبؤ بها (٢) ٠

المجتمعات البدائية ليس لديها أكثر من مجموعة واحدة من المعتقدات ، ومن ثم تولد مجموعة واحدة من المعايير ، فهم يعتبرون أنفسهم جماعة واحدة ولهذا يرى الملاحظ للمجتمع البدائى صورة واحدة ، وكذلك تكشف ثقافتهـم عن درجة عالية من التكامل ، وقد ينحرف الأفراد فى مثل تلك المجتمعـات ، ولكن انحرافهم يكون عن مجموعة واحدة من المعايير ٠ ولكن فى المجتمعات المركبة يختلف الموقف تماما ، فى مثل تلك المجتمعـات المكونة من جمـاعات مختلفة وكل منها على ما رأينا له معاييره المختلفة التى يتطابق معها الأعضاء ٠ ومن ثم فقد يتعرض الفرد أو الجماعة بل وعادة يحدث أن يتعرض لمعاييـر متعددة ٠ بعض هذه المعايير قد تكون متوافقة ، ويؤيد بعضها البعض ، ولكن أيضا من المحتمل أن تختلف المعايير ومن ثم قد تكون متعارضة وفى بعض

---

1) Biesanz : Op. Cit., P. 71

2) Allyn : Op. Cit., P. 49.

الأحيان متصارعة كل مع الأخرى • فأحيانا ما يعتبر خطأ عنـد جماعة من الجماعات يعتبر صواب عند جماعة اخرى حتى فى نفس المجتمع الواحد ، اذ قد يكون ما هو انحراف عن المعايير عند جماعة هو تطابق مع المعايير عنـد جماعة اخرى • (ففى المجتمع الأمريكى مثلا يوجد الكاثوليك والبروتستانت واليهود ، ولكل من هذه الجماعات معاييرها التى قد تتعارض ، ومن الناحية السياسية يوجد الديموقراطيون والجمهوريون ، ومن ناحية جماعات العمل يوجد ذوو الياقات البيضاء ، والعمال ، وفى الأفكار يوجد المثاليون والماديون، لذلك المجتمع المركب مثل المجتمع الأمريكى لا يمكن أن يعرض درجة من التكامل الثقافى التى يتميز بها المجتمع البدائى) (١) •

ويلاحظ أن الفرد فى مثل هذه المجتمعات المتعارضة الثقافات ، يتعرض لثقافات متعارضة وقد تكون متصارعة ، فمثلا قد يتعرض طالب عربى مثقف ابتعث الى أمريكا ، للثقافات الآتية ثقافة مجتمعه العربى بمعاييرها ، وثقافة الحضارة الغربية بمعاييرها المختلفة تماما ، وفى نفس الوقت يباشر كل منها ضغطا عليه • بل ان المجتمع الواحد قد يكون فيه ثقافات فرعية متعددة يتعرض لها الفرد أو الجماعة • فالفرد ينتمى فى نفس الوقت الى جماعات متعددة ، ومن ثم يصبح مطلوب منه التطابق مع معايير مختلفة • فمثلا طالب يكون من الريف ثم يأتى الى الحضر ثم ينضم الى جماعة للألعاب الرياضية ، ثم يعمل فى مصنع وكل هذه التنظيمات هى جمـاعات لكل جماعة معاييرها قد يؤيد بعضها بعضا ، وبعضها قد يتعارض مع الأخرى ، وعندما تتعارض هـذه المعايير كل مع الأخرى أو تتصارع ، هنا يجد الفرد نفسه مضطرا للاختيار بينها ، ويمكن أن تكون النتائج أن ينمى الأفراد لأنفسهم صراعا للمعايير ، أو يجرون تغييرات فى اتجاهاتهم ومعتقداتهم • (وهكذا فى المجتمعات الحديثة

---

1) Bierstedt : Op. Cit., P. 247.

المركبة والمتميزة باللاتجانس ، يتعرض الفرد لثقافات متصارعة) (١) · وهى مشكلة نادرا ما يواجهها الفرد فى المجتمعات البدائية ·

وفى الحقيقة أن أحد هذه الصفات البارزة فى المجتمعات المركبة أنها تركب من تقسيمات ثقافية عديدة ، مثل الاقليمية والجنس pacial والسلالية الى آخره ، والتى عادة تتقاطع كل مع الأخرى · والانسان يمكن أن يكون عضوا فى جماعات متعددة فى نفس الوقت ، وأيضا قد يكون فى تقارب شديد مع جماعة أخرى ليس هو عضوا فيها ، فالطبقات الاجتماعية ليست معزولة أو مفصولة ، وكثيرا ما ينضم أبناء الطبقة العليا الى الطبقات الكادحة ويدافعون عنها ويتكلمون بلسانها ، وينشأ الصراع بين معايير طبقتهم ومعايير الطبقة الأخرى ·

وفى المجتمع غير المتجانس ، ربما لا يتعرض الفرد فقط لمعايير مختلفة ولكن أيضا يتمثل معايير قد تكون متناقضة وحتى متعارضة منطقيا · فمثلا قد يعلم الآباء الأبناء أو قد تعلم الديانة أتباعها أن يعلم كل منهما الفرد أن العلاقات الجنسية أساسا عمل شيطانى . ولكنه فى نفس الوقت وسائل الاتصال الجمعى من سينما وتليفزيون وقصص أو جماعة أترابه قد يقنعونه أن العلاقات الجنسية أمر طبيعى ، وهكذا صراع المعايير يمكن أن ينتج تلقائيا وغير محسوس به فى أثناء عملية التنشئة الاجتماعية ، نتيجة عدم تجانس معايير الديانة والآباء ومعايير وسائل الاتصال الجمعى · ومن ثم ينشأ الصراع ·

ويعتقد بعض علماء الاجتماع أن مثل هذه المواقف الصراعية هى المسئولة بشكل كبير عن الارتفاع فى نسبة الأمراض العقلية فى المجتمع الأمريكى · وذلك لا يرجع فقط الى أنه يوجد معايير متعددة على الفرد أن يتطابق معها ،

---

1) Allyn : Op. Cit., P. 49.

ولكن يرجع الى وجود معايير كثيرة متعارضة) (١) · فالمعايير الدينيةتختلف عن معايير الأعمال ، ومعايير وسائل الاتصال الجمعى ، وعن معاييرالعلاقات الشخصية ، وهكذا · فتعدد المعايير واختلافها فى المجتمعات المركبة تضع أمام الأفراد مشاكل ما كان لها أن تحدث · ولهذا يمضى الفرد جزءا كبيرا من حياته محاولا التكيف مع هذه الواجبات المتصارعة · والفرد الذى يقع فى هذا النوع من الضغوط المتقاطعة ، قد يجد من الصعوبة أن يحقق شيئا ، فانه اذا أرضى واحدة من المعايير فمعنى ذلك انه يضحى بالثانية ، فقد يغمره الاحساس بالذنب أو القلق أو أن القرار الذى يتخذه يصاب بالتردد وعدم الكفاءة ، أو أن يصاب بالجمود ·

ونتيجة أخرى لتعدد اختلاف المعايير فى المجتمع المركب ، هى أن الاختلاف فى المعايير تعوق الفهم ، كموقف المتحدثين بلغتين مختلفتين ، وهو يشبه تماما الموقف الاجتماعى الذى خلا من المعايير ، ولقد قلنا انه دونالمعايير يصبح التفاعل بين الناس صعبا وخطرا ، وفى بعض الحالات مستحيلا ، وفى الحقيقة موقف اجتماعى بلا معايير هو موقف اقتراب ، والاقتراب يمثلالتخبط بينما المجتمع يمثل النظام ·

* * *

1) Bierstedt : Op. Cit., P. 247